مشاهدات مسافر :

٢ ـ ألمانيا بعد الحرب

إلى الدير ....

للدكتور محمد سامي الدهان

هذه « توبنكين » كمهدى بها تحتضن نهر الراين فى فخر وزهو فتتلوى حوله الجمائل والبيوت ، وتداعب شطآنه الأبنية والجسور . ولا تزال بيوتها قائمة فى هندسة غريبة تتوالى صاعدة من السفح إلى القمة فتكسب الجبل الذى تقوم عليه جمالا وجلالا. ولو أتيح لك أن تنظر من القمم حولها إلى المدينة لانبسطت أمامك المدينة الحسناء خلال رقعة من الخضرة والماء فتانة خلابة لم تغير الحرب منها إلا فى بيوت سقطت فأصبحت أكواماً ، وحوانيت خلت من البضاعة فغدت خاوية ، وواجهات للمخازن أقفرت إلا من إعلان كبير عن الكمية من الزبدة والخبز والخضار التى توزع خلال الشهر . ويدهشك أن ترى الألمان وقوفاً فى صفوف متلاحقة أمام كل بائع ، تنتظر فى صبر عجيب نصيبها الضئيل من خبز يناله الألمانى ليومه كله ونأتى عليه فى غداء واحد ؛ وزبدة ينتظرها الألمانى لأسبوع بأجمه ، ونصيب مثلها فى فطور واحد ، ولباس قديم جديد تبعثه عبقرية الفقر والحاجة حياً بعد البلى . ويدهشك كذلك أن ترى نظام المقايضة والمبادلة بين البضائع والحاجيات ، وقد عاد إلى ألمانيا فى القرن العشرين بعد أن دفنته منذ قرون .

لا تزال توبنكين موطن الجامعة يقبل إليها الطلاب الناشئون مشغوفين حريصين ، ويعانون مقاعد المكتبة دءوبين جشعين ، يعملون حتى تضج معدهم الصغيرة بالجوع وأجسادهم الهزيلة من الغذاء . ماتت أفراحهم وحفلاتهم التقليدية حول كئوس الجعة ؛ وخمدت أغانيهم وأهازيجهم فى الشوارع والحفلات ، وتفردت النساء والأطفال بالحدائق والحقول لأن الشباب الألمانى بين العشرين والثلاثين غائب عن الميدان وهو اليوم فى الأسر أو فى القبر .

ولا تجد أكثر ما تجد فى هذه المدينة إلا شيوخاً وعجزة قد استسلموا للكنيسة أكثر أوقاتهم ، أو للبيوت يزرعون حدائقها الصغيرة ، منها يأكلون وعليها يقتاتون . وما هى إلا سياحة قصيرة حتى يمل المسافر النظر والنزهة ، فيستريح إلى صديق ودود يستمع منه الشكوى والحرمان والشجاعة والأسى .

ولى فى هذا البلد أصدقاء مستشرقون منهم ليتمان Littemann وفيكتور بور Viktor Burr وفايسفايلر Welrsweiler . أما الأول فما يزال يبتسم فى فلسفة للحياة ، فى أسلوب شرقى ، ويتحدث عن ماضيه فى فلسطين ومصر بلهجة عربية ، ويعتز بطلابه ، وفيهم آنسة تترجم « الأيام » للدكتور طه حسين بك إلى اللغة الألمانية ، وطالب يؤلف رسالة عن « الفيح القدسى فى الفتح القدسى » للعماد الأصفهانى ، وآخر يؤلف عن العامة والأزجال ، يسترشدون برأيه فى بيته أو فى معهد العلوم الشرقية. وهذا وهذا غاصان بالكتب العربية الجليلة النادرة . فمن شاء أن يعود إلى الشرق وهو فى ألمانيا فليقصد الرجل . وأما فيكتور بور فهو قيم المكتبة العامة ، يؤلف عن العرب والبيزنطيين فى أناة ودقة وعلم عرف بها أساتيذه وأجداده وأما الثالث فليس فى المنطقة ، وإنما وقعت الهدنة وكان فى « غوتنجن » فأصبح من نصيب المستعمر الجديد . وحظه فى هذا كحظ المخطوطات العربية سافرت خلال الحرب من أماكنها إلى مخابىء أمينة . فلما انتهت الحرب أصبحت البلد فى دولة ومخطوطاتها فى دولة . فى الجنوب مخطوطات الشمال وفى الغرب مخطوطات الشرق . فى كل منطقة مخطوطات المنطقة الأخرى ، فماذا فى هذه المنطقة من مخطوطات ؟ لعل أصدقائى من المستشرقين لا يعرفون ذلك بل لعلهم لا يسعون إلى هذه المعرفة فى هذه الظروف ...

والألمانى يجهل ما يجرى فى بلاده الآن ، وقد عادت به النكبة قروناً فى ركب الحضارة . فقد انقطعت المواصلات الحسنة أو كادت ، وتباطأ البريد حتى لكأنه معدوم ، فالبرقية من برلين إلى غيرها تقطع أربعة أيام أو ستة ؛ والرسالة تطوى المسافات فتفتحها أيد وتغلقها أيد فى رقابة غربية ، فإذا وصلتك فأنت بها سعيد . فليس عجيباً إذاً أن يجهل الألمان ما فى منطقتهم من خزائن ثمينة ، ذلك لأن الحكومة النازية نقلت أكثر المكتبات إلى مخابىء نائية وأحاطت هذا النقل بالكتمان ، وحرمت إذاعة الخبر ، ليجهل الحلفاء مواطن التحف ، وليجنبوها غاراتهم العنيفة التى اشتدت فى الشهور الأخيرة قبل الانكسار .

واختارت أحد مخابئها هذه القرية ، بين جبال عالية لا تصلها الطائرات فإذا وصلتها لم تنل منها . وليس فى هذه القرية الصغيرة ما يحوى الكنوز ويضم التراث ويكفل المخطوطات إلا حصن واحد جبار هو هذا البناء الكبير بناء الدير . فما من سبيل إذاً إلى بلوغ بعض أمنيتى إلا أن أدخل الدير ...

لبثت يومين كاملين أفكر فى الدير وفى السبيل إلى الدير ، فقد انقطعت الأسباب بين أكثر المدن الكبيرة فكيف نبلغ هذه القرية ، وليس من قطار مباشر يصلنا بها ، وليس من مهاجرين يقصدون إلى الدير ؛ وكيف أقنع من حولى أن ثمة مخطوطات عربية يجب أن أراها ؟ ! جزعت حين عرضت الأمر على أصدقائى من الألمان فضحكوا . إن السكان لا يبلغون المأكل والملبس ، ونحن نفتش عن زينة الحياة وترف العلم ، نحب الكتب القديمة ونعنى بالأوراق الصفراء ، والأشخاص حولنا يتضورون جوعاً ! فما أعجب الدنيا !

استطعت بعد جهد أن أقنع سيارة نقلتى فى شروط قاسية ؛ بعضها أننا سنقطع أياماً فيما يجتازه المسافر من قبل فى ساعات ، والسيارة هى السيارة ، ولكن جهازها اليوم عجيب لا يأكل إلا الخشب وقد حرم «السائل» النادر هو كذلك . فماج السائق إلى برميل كبير يرمى فيه قطعاً من الخشب تحترق خلال بعض الساعة فإذا الجهاز يؤذن بالحركة وإذا نحن نمضى فى الطريق .

لا أستطيع أن أتصور عواطفى الآن ، ولست أذكر أكان علىّ أن أضحك أم أحزن . فصوت السيارة غريب ، ودخانها الأسود كان يلفح مع الريح وجوهنا ، فنفرح أن السيارة جادة ، وما هى إلا ساعة حتى نهدد بالوقوف لأن المحرك جاع ، فنفرغ بعض الكيس من الخشب ولبعض كذلك فى مرتفعات ساحرة ووديان فتانة ؛ تنسينا هزل الزمان وسخرية الأيام ، وما يصنع الإنسان بالإنسان حتى بلغنا القرية التى نقصد إليها ؛ وإذا القرية لا تعدو عشرات البيوت فى واد جميل عطر ، وإذا بناء الدير يقوم فى عظمة لحراسة الوادى والإشراف على خيراته .

دخلنا سور الدير ، وقرعنا الجرس ؛ فإذا الكاهن البواب يسألنا عن الغرض والغاية ؛ فتولى صديق الكلام ورجا منى أن « ألقى الأب الأول » Pater Prior كما يسمونه فهو رئيس الآباء وراعى الدير . فدخلت حجرة الانتظار بين صور القديسين والصلبان ، ولبثت واقفاً واجماً حتى فتح الباب فإذا الأب المنتظر قد سلخ فى السن ، وعلى عينيه نضارتان سوداوان ، وعلى صدره صليبه الذهبى الكبير المتدلى ، فسارعت إلى الأرض جاثياً على الركبة اليسرى واستلمت يده أقبل من الخاتم الذى أقبله بشفة مرتجفة وقلب مضطرب لئلا يخونى التمثيل فيكشف أمرى وتبوء مهمتى بالفشل وأعود أدراجى لا ألوى على شىء .

انفرجت أسارير الرجل المحترم ورحب بى وعرف من لهجتى الألمانية أنى غريب وأنى قدمت المنطقة لأزور القرية للمرة الأولى ، وأن ليس فى القرية من سكن آوى إليه . فالفنادق مستشفيات خاصة بجرحى الحرب ، وأنى لاجىء إليه ، وليس من سلطان للاستعمار عليه . فقد وعدت الهدنة بأن تحترم الأديان وبيوت الله ، فهو وحده يحكم القرية والدير ، وإليه هنا المرجع والمآب .

فهم الرجل فى كلمات ، وأجاب فى لطف بالغ ووقار جميل بأن الدير بيت للجميع وأن ما فى الدير ملك لله ، وأنه موكل بصحبتى قيم المكتبة فهو دليلى إلى المخطوطات ، وصديق إلى اكتشاف المخبئات . وقرع الجرس فانحنى كاهن صغير من « الإخوان » ، وانفتل يطلب الأب غالوس Pater Galus وسألنى فى هذه الفترة القصيرة وقد فهم حرمتى للمكان وغربتى بين السكان ليتأكد أنى لست من البروتستانت الكثرة فى ألمانيا ؛ فدير الكاثوليك وهم قلة فيها يتكاتفون ويتعاونون . ولست أدرى كيف أجبت ، ولست أذكر كيف تكلمت ، وإنما أعرف أن قلبى وقف عن الخفقان لحظة خلت أنى أقضى إثرها ، وإنى أجبت من غير أن أعلم : أجل يا أبى الكبير أجل ! فرجانى فى تبسط جميل أن أصانع الحرية فى طلب ما أريد ، فشكرت له ، وانحنيت على يده ثانية أودعه كما استقبلته لألقى الأب القادم وألقى بين يديه بمقاليد الأمر وماجئت له

وما هى إلا دقائق حتى كنا ننحنى فى الكنيسة أمام المعبد نقدم واجبات التحية فى الاحترام قبل أن يحين العشاء .

ويشاء الله أن تتتابع المراسيم الصعبة فى أقل من ساعة . فالدخول إلى الأكل له نظامه فى الدير . يدخل الآباء واحداً بعد واحد وهم يرتلون ؛ ويتبعهم الإخوان فى أثرهم وهم يرتلون ؛ ثم يدخل ضيوف الدير ، وفيهم ثلاثة طلاب وأستاذان ، وهم كذلك يرتلون ، وأنا ساكت واجم أنظر يمنة وأنظر يسرة فى طرف خفى وقلب وجل ، قبل الدخول ، لئلا أخطىء فى الحركة وأشذ عن هذا النظام الدقيق .

ووقفنا دقائق أمام المائدة ونحن خشوع سكوت ملتفين حول